ذكرى النفي الى مالطة

١٨٤٠–١٩٤٠

بقلم نجيب الدحداح

« وفي الصباح توجّه ، ترافقه اسرته وحاشيةٌ كثيرة ، الى صيدا . فوصلها في الحادي عشر ووضع نفسه تحت تصرف الكابيتان باركلي ، قائد الموقع . وفي اليوم التالي نُقل الامير وجميع مرافقيه ، عن امر الاميرال ستوپفورد ، على ظهر الباخرة الانكليزية « سيكلوپ » الى بيروت . ثم سافرت الباخرة ومضى الامير بشير يقيم في حمى الشعب البريطاني »[1]

هكذا نقل صحافي فرنسي ، منذ قرن كامل ، خبر انتقال الامير بشير الكبير الى مالطه في ١١–١٨ تشرين الاول سنة ١٨٤٠ . وقد جاء نفي الامير على اثر ثورة اهلية امدّها ممثلو الدول الاوروبية العظمى بمساعدات جمة ، فكان الحادث سبباً لحوادث اخرى هامة كان لها التأثير الاكيد في توجيه مصيرنا.

امّا نحن فنريد ان نستفيد من مرور مئة سنة على نفي الامير لنجعله محوراً لكلامنا في مقدماته ، وظروفه ، ونتائجه ، وكلها حافلة بما يفسّر احوال لبنان الى يومنا هذا ، ويجعلنا نزداد ثقةً بمستقبله.

المقدمات

قلنا ان نفي الامير جاء على اثر ثورة اهلية ؛ وسنرى اسبابها ، وحوادثها ومميزاتها . ومن كلامنا في حوادثها يتبيّن لنا دور السياسة الدولية فيها.

امّا الاسباب ، فتعود اصلاً الى اتفاق الامير بشير ومحمد علي ، وتصرف الفاتح المصري مع اللبنانيين . فقد ظلّ لبنان ، في مقاطعاته الاصلية على الاقل ،

---

(١) Baptistin Poujoulat, *Voyage dans l'Asie Mineure*. Paris, 1841, pp. 561-595
وفي الجملة الاخيرة تذكير بعبارة نابوليون عندما استسلم للحكومة البريطانية.

مستقلاً استقلالاً داخلياً مدة العهد العثماني ، يتولى الامر فيه امراء منبثقون عن انتخابات يقوم بها اصحاب الاقطاع . وكان السلطان العثماني في نظر الحكام اللبنانيين ، على نحو ما كان الامبراطور البيزنطي في نظر ملوك اوروبة الغربية ، صاحب سيادة اسمية يدفعون له الاموال للحصول على خلع تولي اصحابها صفة شرعية للحكم . ولم يكن الخلاف الدائم بين امرائنا ووزراء الدول العثمانية ليدور الّا على امرَين: مبلغ الاموال المترتب دفعها سنوياً للباب العالي ، وحدود لبنان الطبيعية . وكثيراً ما كان يغتصب الولاة المجاورون سهولنا الخصبة ومدننا البحرية الكبرى. ولمّا تحالف الامير بشير سرّاً مع محمد علي ، في سنة ١٨٢٣ ، وعد الاخير بأن يكافئ اللبنانيين اذا انضموا الى جيوشه ، بإعادة مدنهم اليهم وبتعزيز استقلالهم . وكان من الطبيعي ان يأمل جدودنا ايضاً ان تُدبَّر قضية الضرائب لخير مصلحتهم.

وفي ٢ تشرين الثاني سنة ١٨٣١ هاجم ابراهيم باشا ، ابن محمد علي ، فلسطين. فتريّث الامير قليلاً في البدء، ولم ينضم الى الفاتح المصري الّا بعد سقوط عكا ، في حزيران ١٨٣٢ ، وقد عرفها في عهد الجزار سبياً لعثرة بونابرت . فاشترك اللبنانيون بعدئذٍ بفتح دمشق وسائر الاراضي السورية. وعلى اثر معاهدة كوتاهية ، في ٥ ايار ١٨٣٣ ، انصرف ابراهيم باشا الى تنظيم « الاقطار الشامية ». فقامت في وجهه العراقيل والثورات في فلسطين (نيسان-ايلول ١٨٣٤) ، وبلاد النصيرية (تشرين الاول - كانون الاول ١٨٣٤)، والاضطرابات في حلب وانطاكية الخ. وكان في قمع اكثرها فضل للجند اللبناني. فكيف كانت المكافأة وكيف حققت الآمال ؟

لم يعبأ ابراهيم باشا بكيان لبنان الخاص عندما وضع الضرائب على الاقطار التي اعتُرف له بالسيادة عليها في معاهدة كوتاهية : فاحتُكرت منتوجات الارض والبهائم ، وسُخرت الافراد والجماعات ، واضطر كل فرد بلغ السنة الرابعة عشرة من عمره ان يدفع رسماً جديداً مشهوراً باسم « الفرده ». وقد ضجّت جميع البلدان التي حكمها ابراهيم باشا من هذه الضريبة الاخيرة. فقال شاهد عيان ان لبنان « يدفع في العهد المصري ما يزيد بأربع عشرة مرة على الضرائب التي كان

يدفعها في عهد السلطان (العثماني) ».[1]

ثم اردف متكلماً عن الاهلين: « لقد سلبهم الاستبداد حقائدهم المصفرّة على رؤوس جبالهم ، وورقة التوت المنصوب في وديانهم ، والزيتون ، والتين والجوز التي كانت ثروتهم في الماضي . ان الاستبداد يمسك بهم ، ويجرّدهم ، ويدعهم عراة مثل صخور لبنان التي لم يعد ينبت عليها زهرة ، ولا خضرة ، هو يبتلعهم كما يبتلع نسر جبالهم لبّ الارز . »[2]

وما سهل هذا الاستبداد الّا على اثر تجريد ابناء لبنان من سلاحهم . وقد عمد ابراهيم باشا الى هذا التجريد بحيلة كانت اصلاً لشرور عدة توالت على اقوامنا ، اذ تظاهر بأن التدبير لا يتناول الّا الدروز . فاضطرّ هؤلاء للتسليم . وبعد ذلك أعيدت الكرة على النصارى فسلّموا بدورهم سلاحهم (١٨٣٥) . هي المكيدة الاولى في التفريق بين اللبنانيين، وكان نجاحها تحريضاً على تكرارها .

وفي تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ شبّت نار الفتنة في حوران ، فدعا الامير بشير رعاياه النصارى لنجدة الجيش المصري، فلبّوا الدعوة، ساقطين في حبال المكيدة الثانية لرضاهم بمقاتلة دروز حوران ابناء دروز لبنان . ولكنّ عاقبة ذاك التدخل كانت وخيمة على القائد المصري: فقد ابى اللبنانيون ، عند انتهاء الفتنة المذكورة ، تسليم سلاحهم ، بل استفادوا من البنادق التي أعطيت لهم للقيام بثورة كانت اولى الضربات القاضية على فتوحات محمد علي .

— ولا يفتنا ان نقول ، قبل الحديث في حوادث الثورة وميزاتها ، ان شيئاً من عهود ابراهيم باشا بشأن مطالب جدودنا الوطنية لم يحقق . فان بيروت وصيدا وصور ، بعد ان وُضعت ، في ايلول ١٨٣٢ ، تحت سلطة الامير اللبناني ، أعيدت الى الحكم المصري المباشر بعد معاهدة كوتاهية —

ولما رأى محمد علي اجماع الدول الاوربية الكبرى (ما عدا فرنسة) على مساعدة الدولة العثمانية ، اخذ بتحصين المرافئ الخاضعة لسيطرته وبطلب الجنود من الاراضي المحتلة . فأمر اولاً بتجريد اللبنانيين من سلاحهم ، واكثر

(١ B. Poujoulat, *op. cit.*, p. 561-595

(٢ Poujoulat, *op. cit.*, pp. 330-352

من الاخطاء السياسية فطالبهم ايضاً بالضريبة المذكورة اعلاه « الفرده » اتدفع سلفاً عن سبع سنوات . فضجت البلاد بالناقمين يحرّضهم رسل الدول الاجنبية ، وجرى اجتماع تمهيدي في دير القمر في ٢٧ ايار ١٨٤٠، وُجهت على اثره دعوة للعصيان الى جميع المقاطعات اللبنانية ومما جاء في تلك الدعوة: « . . . لزم اننا اظهرنا العصاوة بعد الاتكال على الله واعتمدنا على محاربة هذه الغدارة وتقديم الطاعة لسعادة افندينا الامير المعظم . . . نرغب بان تكونوا كما نحن متيقظين سهرانين (سهرانين ؟) واعين لكلما يجدّ نواحي بيروت وجهة الشمالية وكلما جد عليكم شي عرفونا حالاً صحبة مخصوص وبحوله تعالى انتم الظافرون ولا يلزم نحشكم على التيقظ كون هذا صالح عايده للجميع »[1] وكان اول عمل قام به الثوار اللبنانيون ما ذكر في هذه الدعوة عن توجه فريق منهم نحو صيدا حيث كان يستعدّ سليمان باشا ، احد قواد ابراهيم باشا ، لمهاجمة الناقمين اللبنانيين فظفر الثوار واستولوا على ١٨٠ بندقية للعدوّ . فكتب ابراهيم باشا الى اللبنانيين ينكر ان يكون في نية حكومته تجنيدهم ، ويشدّد في النفي مقسماً « بحياة عزيز رأس ابيه الخديوي الاعظم ورأسه » . ثم يهدّد الثائرين « بتدميرهم وتخريب اماكنهم كافة »[2] ان هم لم يرتدعوا عن مقاومته . فلم يرتدّ الوطنيون بل تقاطر فريق منهم الى كنيسة مار الياس في انطلياس ، واقسموا بأن يكونوا جميعاً « من دروز ونصارى ومتاولة واسلام المعروفين بجبل لبنان » ذوي « قول واحد ورأي واحد . »[3]

وفي ٨ حزيران ، اذاع الثوار نداء الى جميع مواطنيهم يدعونهم فيه لقتال المصريين، وسنعود بعد قليل الى مضمون هذا النداء الذي يصحّ ان يُعدّ دستور الثورة اللبنانية . وتتابعت المناوشات بين الثوار اللبنانيين والجنود المصريين . وكثر عدد الاولين واتسعت الحركة الوطنية . فأرسل محمد علي حفيده ، عباس باشا ، الى لبنان على رأس ١٢ الف رجل ، فوصلت هذه القوة الى بيروت في

١) سليمان ابو عز الدين : ابراهيم باشا في سورية ، بيروت ١٩٣٩ ، ص ٣٦٠
٢) اسد رستم : الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ٥ : ٩٨
٣) رستم : ك.م. ٥ : ١٠١

٢٧ حزيران ١٨٤٠ . وجاء عثمان باشا من شمالي سورية الى بعلبك بقوة مثلها . وكان في الوقت نفسه سليمان باشا يهاجم الجبل من جهة السواحل بنحو عشرين الف جندي[١] . فكانت الحملة شديدة الوطأة ، لا سيما وان سياسة الامير بشير الموالية لابراهيم باشا ، وسياسة التفريق المذكورة قبلاً بين النصارى والدروز كانتا قد اوجدتا الانقسام بين اللبنانيين . امّا الثوار فانهم ، بالرغم من هذا الضعف ، كادوا يفوزون على جنود عثمان باشا في البقاع ، وعلى جنود عباس باشا في ضواحي بيروت . ولكنهم فشلوا في سنّ الفيل (ضواحي بيروت) فاضطربت الحال بينهم وتشتتوا . وفي ٧ آب تمكن الجند المصري من القاء القبض على ٥٧ شخصاً من الامراء والمشايخ وسائر الاعيان فأبعدوا الى سنار (السودان). وجُرّد اكثر اللبنانيين من سلاحهم[٢] .

ولكن انتصار ابراهيم باشا كان وقتيًا . فان مؤتمر لندن لمشلي انكلترة والنمسة وپروسية وروسية كان قد قرّر ، في ١٥ تموز ١٨٤٠ ، ان يوجه الى محمد علي انذارًا بوجوب الانسحاب بجيوشه الى مصر في مهلة عشرة ايام . وعندما مرّ الموعد المضروب دون ان ينفّذ المصريون مطالب الدول انتقلت هذه الى العمل ضد محمد علي ، فأرسلت انكلترة سفنها الى شواطئ الشرق الادنى واذاع السير شارل نابيير نداء الى جميع السوريين واللبنانيين يدعوهم فيه الى الثورة . ومما قاله : « يا اهالي جبل لبنان ، انكم بنوع خاص تشغلون نظرنا . انهضوا والقوا عنكم النير الذي يزعجكم . ان العساكر والسلاح والذخائر سوف تأتيكم من الاستانة ولا خوف بعد الآن على شواطئكم من المراكب المصرية . »[٣]

وفي ١١ ايلول نزل في جونية عشرة آلاف رجل يقودهم السر شارل نابيير ، فاتحد بهم الثوار اللبنانيون ، وقد عادوا الى القتال عند وصول النجدات الاوروبية والعثمانية ، واخذوا يهاجمون الجيش المصري في مواقعه التي كثرت في الجبال على اثر فوزه الاخير . فقسّم ابراهيم باشا جنوده في لبنان الى ثلاث فرق : سارت

١) سليمان ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٥

٢) سليمان ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٩

٣) Jouplain. *La Question de Liban*, Paris, 1908, p. 227

الاولى تحت امرته نحو بيت شباب الثائرة ، وبقيت الثانية تدافع بقيادة سليمان باشا عن بيروت ، وتمركزت الاخيرة — وعلى رأسها عثمان باشا — في ميروبا ، قاصدة ان تحول دون اتصال ثوّار كسروان بالشواطئ . فهاجم الثوار ، بقودهم الامير بشير ملحم (خصم الامير بشير الحاكم) ، عثمان باشا واضطروه للفرار بفرقته الى بعلبك . ثم قاموا بحركة التفاف قطعت ابراهيم باشا عن نجدات كان ينتظر قدومها من البقاع ، فتمكن العثمانيون بقيادة السر شارل نابيير ان يهاجموا القائد المصري الاكبر . واضطر هذا الاخير ان ينسحب بدوره الى جرود كسروان فإلى بعلبك (٤—١٠ تشرين الاول) . وعلى اثر هذا الفوز استولى الانكليز على بيروت[1] . وفي ٩ تشرين الاول ، عند انتهاء مهلة اعطاها الحلفاء لتسليم الامير بشير الكبير (مما سوف نعود اليه) ، صدر فرمان بتعيين الامير بشير ملحم حاكماً على لبنان ، وقد عرف الحاكم الجديد باسم بشير الثالث او « بشير بوطحين » . وتقدّم الامير بشير الثالث على رأس رجاله الى حمانا يراقب حركات الجيش المصري المحتشد في زحله والبقاع . ولكن المصريين لم يحاولوا مهاجمة لبنان واخذوا ينسحبون . فبلغت الثورة اللبنانية غايتها الاولى .

روينا اعمال الثورة باختصار كي نحيلي الراغبين في اطلاع واسع على تلك الحوادث الى المؤلفات المذكورة في حواشي هذا المقال . واننا نريد التوقف قليلاً للنظر في ميزات تلك الثورة :

ان لثورة ١٨٤٠ عدة ميزات على ما تقدّمها في لبنان من حروب اهلية :

فيها تدخل ممثلو الدول الاوروبية بصورة علنية وباجتهاد متواصل ، ولا غرو في ذلك فان الثورة اللبنانية تؤلف حادثاً من حوادث المشكلة المصرية التي كادت تقضي على التوازن الدولي في القرن الماضي . بل ان الثوار اصبحوا ، ابتداء من ١٢ آب (تاريخ نداء نابيير المذكور اعلاه) ، احدى الفرق المنتمية الى الحلفاء في قتال المصريين .

(١) Jouplain, *op. cit.*, pp. 234-235

وفي ثورة ١٨٤٠ ، كثر ايضاً ، خلافاً للسابق ، تدخل الاكليروس اللبناني في مراحلها. فقد كتب الثوار في اوائل حزيران يستعطفون البطريرك الماروني[١] ، ثم اصدر سليمان باشا انذاراً يحذّر فيه الرهبان من قبول الثوار في اديرتهم[٢] . وفي ٢٠ حزيران كتب اسقف صيدا الى البطريرك متخوّفاً من خراب البلاد على اثر « اجتماع الناس ضد خاطر ولي الامر » ، ملتمساً من رئيسه الروحي ان يجمع الاساقفة وسائر الاكليروس لينصحهم بأن يعملوا ما يطمئن الافكار ويوقف الفتن[٣] . وقد تذمّر الامير خليل ، ابن الامير بشير ، من موقف الاكليروس الماروني في كسروان وارسل من ينذر البطريرك بوجوب تغيير الكهنة في غزير وجوارها[٤] .

وامتازت الثورة المذكورة بصفتها الشعبية . وقد اصاب برلس فحيم عندما وصفها بأنها « قومية وشعبية »[٥] . ومن تدابير القائمين بها ما يجوز ان يُسمى بدعةً في لبنان الاقطاعي ، فيُعلن نداء ٨ حزيران انتخاب جمعية مؤلفة من خمسة اعضاء يمثلون جميع النواحي « ويعقدون كلهم او بعضاً مجلساً في مكان مناسب للاتفاق على وضع ادارة منظمة » . ثم يقول : « وينتقي (مجلس الاعضاء الخمسة) عشرة آلاف من رجالنا البواسل لمقاومة كل الدسائس والحركات العدائية المسددة نحو حريتنا وتخصص الضرائب — التي كان في نية الحكومة استيفاؤها من الذين كانت تريد تجنيدهم لو لم تنهض عليها — لشراء المؤن اللازمة للعشرة آلاف مقاتل »[٦] . وقد اظهرت تلك الحوادث ابطالاً شعبيين كالشتيري ، وابي سمرا غانم ، وشبلي العريان ، واحمد داغر . فتكون الثورة اللبنانية قد جمعت في رأسها سلائل البيوت الاقطاعية وابناء الطبقات الشعبية ، متخذة صبغة قومية

١) اسد رستم : الكتاب المذكور ٥ : ٩٤
٢) اسد رستم ك. م. ٥ : ١٠٢
٣) اسد رستم ك. م. ٥ : ١١٧
٤) اسد رستم ك. م. ٥ : ١٥٢
٥) Jouplain, *op., cit.* p. 219
٦) من نداء ٨ حزيران — انظر « مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية » لفيليب وفريد الخازن ١ : ٤ ؛ واسد رستم : ك. م. ٥ : ١٠٢

وهي الميزة الاخيرة والكبرى.

قلنا مع بولس نجيم ان ثورة ١٨٤٠ حركة « قومية وشعبية »، وبالصفة الاولى قد امتازت، لا عمّا تقدمها من الحروب في لبنان، بل عمّا جرى من الحوادث في الشرق الادنى في القرن التاسع عشر:

اذا شئنا ان نبحث عن غاية وطنية — حقيقية او مصطنعة — لقادة الثوّرين في الحروب التي جرت بين محمد علي والدولة العثمانية، وفي الثورات التي قامت خارج لبنان بوجه ابراهيم باشا، لن نعثر عمّا نطلبه. فان ابراهيم باشا، عندما هاجم « الاقطار الشامية » في سنة ١٨٣١، اذاع انه قادم باسم السلطان العثماني نفسه ليقتصّ من عبدالله باشا والي عكا. ولما سأل إمامٌ دمشقي هل يجب ان يوضع اسم محمد علي مكان اسم الخليفة محمود في صلاة الجمعة، امر ابراهيم باشا بتأديب الامام السائل[1]. ويقول محمد علي في رسالته الى ملك فرنسة المؤرخة في ١١ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠: « ان جميع اعمالي صدرت عن حبي لوطني فقد كنت تمكنت بعد مساعٍ جسام... من توطيد الراحة في سورية... ان وجود سورية بيدي لعامل قوي يمكنني من مدّ يد المساعدة الفعالة لجلالة السلطان ولتركية... فان مساعي الذين توهموا انهم يعملون على ضمان سلامة كيان السلطنة العثمانية بتحريض احدى ولاياتها على العصيان لم تؤول الى تحريك كل البلاد بل الى ايقاد نار الحرب الاهلية. »[2]

امّا الوطن الذي يذكره في بدء الرسالة، فلا تعريف له. أتكون سورية التي احب الخديوي المصري ضمان راحتها؟ أتكون تركية وقد حاربها ليمدّ لها يد المساعدة؟ أتكون مصر، مصدر تلك الحركة؟ والحق يقال، ان محمد علي لم يكن ليعرف سوى « مصالحه الشخصية ومصالح اسرته » التي يتحدث عنها في الرسالة نفسها وليست مصر في نظره سوى « إيالة » عثمانية استولى عليها ويودّ ان تتسع سلطته الى سائر « الإيالات » العثمانية، ولربما طمع بالخلافة

١) Poujoulat, *op. cit.*, p. 313

٢) ف. وف. الخازن ك. م. ص ٦٤

الاسلامية. اما الوطنية والقومية، كما نعرفها، فلم تخطرا له ببال، كما لم تخطرا ببال اعدائه اسياد السلطنة العثمانية.

فلنعد الآن الى الثورة اللبنانية ولنطالع نداء ٨ حزيران المذكور سابقاً، ومطاليب الثوار، وجواب فريق منهم على سؤال وجهه اليهم الامير بشير الكبير.

ان نداء ٨ حزيران قد طُبع اولاً مترجماً الى الفرنسية في الجزء الثالث من « مجموعة معاهدات الباب العثماني » (باريس ١٨٦٥) للبارون ده تستا[1]. وفي هذه النشرة وردت التعابير التالية « الى المواطنين الاعزاء . . . انفة اللبنانيين وروح الاستقلال. . . حفظ شرفهم (اللبنانيين) وكيانهم » ولكنها غير واردة في نسخة عربية وجدها الدكتور اسد رستم في دار القنصلية البريطانية في بيروت فنشرها في « الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا.»[2] وعلى كل فان النداء يحمل على الحكومة المصرية لاعتدائها على حرية اللبنانيين، وارهاقهم بالضرائب، والقاء الفتن فيما بينهم، وتجريدهم من سلاحهم بواسطة الخداع، وتجنيد فريق منهم. ويدعو القائمون بالثورة مواطنيهم الى الاتحاد والعمل السريع لمقاومة « العبودية »، ذاكرين مثل « الفرنسويين الذين عندما هددوا بالاستئصال اذا لم يستسلموا فضلوا الموت فخاضوا غمرات الوغى وكسروا ١٥٠ الف رجل»[3]، ويختمون — بعد تنظيم جمعية ثورية كما رأينا اعلاه — قائلين: « وقد سبقتكم الاروام على القيام وحصلوا على الحرية المطلقة من الله. » وفي الجملة الاخيرة تذكير بثورة اليونان (سنة ١٨٢٨) التي ادّت بتلك البلاد الى استقلالها التام. ولا ننسَ ما جاء في بدء المنشور من التمييز بين الحكومة المصرية التي قام الثوار يحاربونها وبين الامير بشير وقد سكت اللبنانيون، حتى ذاك التاريخ، عما اصابهم « لاجل طاعتهم لسعادته ». بل انظر الى مطالب الثوار اللبنانيين كما قدّموها الى الامير امين، ابن الامير بشير:

---

١) Jouplain, *op. cit.*, p. 288 : طالع تعريب النشرة في المخازن: ك. م. ص ٢

٢) رستم: ك. م. ٥: ١٠١

٣) في نشرة « المحررات السياسية » وردت عبارة « قتلوا » بدلاً من « كسروا » التي فضلناها وقد جاءت في نشرة الاستاذ رستم. ولا ندري الى اية حادثة اشار كاتب النداء.

بقاء سلاحهم في ايديهم وعدم تجنيدهم ، وتنظيم جباية الضرائب وانشاء « ديوان مشورة » في بيت الدين لتمثيل البلاد ، وابعاد الشاعر بطرس كرامه عن ديوان الامير[1] .

اما الطلب الاول فهو يهمّ كرامة البلاد . وفي الطلبين التاليين رغبة في التنظيم المالي والحكومي جديرة بالانتباه . واما الطلب الاخير فانه يهمّنا في هذا المقام لأنه يرمي الى جعل ديوان الامير وطنياً صرفاً ، بعيداً عن تأثير الشاعر الحمصي ، خليفة آل البحري اعوان الحكومة المصرية .

ولمّا اراد الامير بشير ان يقنع الثوّار بالعودة الى الهدوء ، فاوض اهل الشوف واستوضح موقفهم من الحكومة والثائرين فاجابوا انهم « بقلب واحد درزي ونصراني » ، وانهم لا يسلمون سلاحهم ولا يقبلون بالجندية ، ولا يسمحون للجند المصري بدخول البلاد ، ولا يحاربون احداً من مواطنيهم الّا اذا كانت غايته مقاتلة الامير الحاكم .[2]

اذاً لم يعد من ريب في ان غاية الثورة اللبنانية كانت اولاً وآخراً مقاومة الحكومة المصرية واستبدادها بالوطنيين ، والدفاع عن كيان لبنان وحرياته .

فأين هذه النفحة الوطنية تصدر من شعب صغير فقير في اواسط القرن التاسع عشر من روح محمد علي واعدائه العثمانيين كما تراءت لنا في الاسطر السابقة ؟

اما الامير بشير ، فان الثوار ظلّوا يحترمونه حتى آخر لحظة من وجوده في وطنه . ولا غرو في ذلك ، فكان قد مضى عليه نحو ٥٢ سنة وهو على رأس البلاد يحافظ على كرامة شعبه الصغير ، ويوفّر له الامن وسائر اسباب النجاح .

فكيف ادّت ثورة ١٨٤٠ الى خلع الامير ونفيه ؟ نصل هنا الى الحادث التاريخي محور مقالنا ، فنرى موقف الامير من الثورة وظروف استسلامه الى الاميرال الانكليزي .

---

١) ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٤

٢) ابو عز الدين : ك . م . ٢٦٨

الحادث

ان الثوار ، في ندائهم المشهور ، قالوا انهم سكتوا حتى الآن عن انواع الظلم التي الحقها المصريون ببلادهم ، اكراماً للامير بشير الذي « امنهم وطمنهم بالراحة وبعدم الرد عليهم » ، ولكن حكومة ابراهيم باشا « غدارة وخداعة احتسبت خداعة سعادته كلا شيء بل اظهرت له النفور في ترسوس كما قد بلغ البعض لما اعتذر عنهم » .

ترى ، ماذا جرى في طرسوس ؟ لا نعرف عن تلك الحادثة غير ما جاء في الجملة المذكورة ، ونستنتج منها ان الامير شعر بالضيم اللاحق برعاياه فنبّه عليه ابراهيم باشا فلم يأت التنبيه بالنتيجة المتوخاة . وفي ١١ حزيران كتب قنصل روسية الى حكومته يقول : « لقد لفحت سموم الفتنة في لبنان من جراء اصدار ابراهيم باشا امره بتجريد الموارنة من اسلحتهم رغماً عن توالي نصائح الامير بشير له بتحاميّ جمعها »[1] ثم انه على اثر مهاجمة الاسطول الانكليزي لبيروت وتراكض اللبنانيين الى جونيه لاستلام السلاح من ايدي الحلفاء، استدعى ابراهيم باشا الامير بشيراً الى مقابلته في بعبدك وسأله رأيه في الحالة ، فأشار عليه بإعادة سلاح اللبنانيين اليهم وباعادة ما جبي منهم سابقاً باسم ضريبة « الاعانة »[2] .

في ما تقدم يظهر لنا الامير الكبير كأنه يعطف على شعبه ، ويودّ ان يخفف من آلامه ويحافظ عما تبقى له من كرامة . ولكنه يصطدم بارادة حليف قدير لا يحفظ عهداً ولا يرحم مخالفاً ، فيُبان في طرسوس ولا يُستمع الى نصائحه . وهو يريد ، قبل كل شيء ، ان يحافظ على علاقاته الطيبة بابراهيم باشا فيسكت عن هذا الاستبداد ، ويقاوم رعاياه في ثورتهم على الحكومة المصرية ، بل يبالغ في الاخلاص لهذه السلطة فيأمر حفيديه بالتوجه الى صيدا للإتيان بالجنود المصريين الى بيت الدين[3] . وفي طلبه الاخير يقلّ وطنيةً عن محكوميه وقد

---

١) الخازن : ك. م. ص ٥

٢) الشدياق : اخبار الاعيان في جبل لبنان ، ص ٦٠٤

٣) الشدياق : ك. م. ، ٥٦٥

رأيناهم يعلنون ، في ساعة واحدة ، اخلاصهم لاميرهم وارادتهم في منع الجيوش المصرية من دخول بلادهم . وقد افرط في اخلاصه هذا — او بالاحرى في تظاهره بالاخلاص — فكتب الى القائد المصري عثمان باشا طالباً منه ان ينهض بفرقته الى المتن[1] . بل لنقرأ نشرة الامير بتاريخ ٣ ايلول سنة ١٨٤٠ :

« ان وصول الانكليز الى ثغر بيروت غايته خدعكم واخذكم بالحيلة لاضلالكم . وعليه فكل من قبل منهم كتابات ترمي الى التحريض على الثورة يجب عليه ان يسلمها لاولادي الامراء حتى اذا لم يفعل عوقب بالموت .

« وكل من يأخذ منهم سلاحاً او ذخيرة او مؤنة دون اذن من حكومتي ، فعقابه الموت . وكل من يضيف الجواسيس الذين يأتون للحض على شق عصا الطاعة او يصغي اليهم فعقابه الموت ايضاً . . . »[2]

ولكن خطأ الامير الاكبر كان في مساعدته لابراهيم باشا على القاء بذور الفتن بين الطوائف اللبنانية . ففرّق الحليفان بين النصارى والدروز عند نزع السلاح في سنة ١٨٣٥ ، وقاد الامير رعاياه النصارى في سنة ١٨٣٧ الى حوران لقمع ثورة الدروز . ثم عاد في سنة ١٨٤٠ ، في اثناء الثورة اللبنانية ، يدعو الدروز الى التخلّي عن الثوار المسيحيين . ويعدهم ، لقاء عودتهم الى السكينة ، بتخفيض الضرائب واعفائهم من التجنيد والسخرة[3] . فتوفّق قليلاً وكان توفيقه ويلاً على شعبه .

هكذا كان موقف الامير مضطرباً بين واجب الامانة نحو شعبه اليائس الثائر وبين ارادة ابراهيم باشا ، عندما تراجع المصريون عن لبنان على نحو ما رأينا . فاتصل به الاميرال ستوپفورد ، قائد الاسطول الانكليزي ، طالباً اليه الانضمام الى الحلفاء . وقيل ان الامير وقع عهداً يعترف فيه بسيادة الخليفة العثماني ، ولكنه كان لا يزال ، في الايام الاولى من تشرين الاول ، واثقاً بقوة محمد علي وبنجدة فرنسة ، فتردّد في قطع علاقاته بالمصريين وانتظر بضعة ايام رغم

١) الشدياق : ك. م. ، ٥٩٦

٢) الخازن ك م ص ٣٠

٣) Poujoulat, *op. cit.*, p. 561-595

وعد الانكليز بالاعتراف به اميرًا مستقلًا وراثيًا على لبنان . فأعطي مهلة ثمانية ايام انتهت في ٩ تشرين الاول دون ان يعطي جواباً على الانذار . فأعلن الفرمان السلطاني القاضي بعزله وبتولية الامير بشير الثالث مكانه . وكان بشير الكبير قد قطع الامل من حلفائه ، فاودع بعض مواده الثمينة في اديرة مختلفة ، وترك بيت الدين في ١٠ تشرين الاول ، يرافقه زوجته ، وابناؤه الثلاثة ، وحفيد له ، ومدبره ، وبعض الاعيان ، ومعه خزينته التي قدّر الشدياق انها تحوي « ثمانية عشر الف كيس من النقود الذهبية القديمة . »[1] وبات الامير الراحل ليلة في الاولي ، قرب صيدا ، ولمّا علم متسلم المدينة المذكورة بقدومه نصب له الخيام ، واستقبله بكل اكرام ، وادّى له الجند التحية الرسمية على عزف الموسيقى ، ثم توجهت به الباخرة الانكليزية الى بيروت حيث سُئل ان يختار مكاناً لمنفاه في اي بلد يشاء خارج مصر وفرنسة . فاختار مالطه وركب الباخرة ، بعد خمسة ايام ، برفقة زوجته ، واولاده ، واكثر احفاده ، ومدبره بطرس كرامه ونحو سبعين رجلًا من حاشيته . وسافر الى الجزيرة المختارة فاشتهر بلقب « المالطي » ، وتلك كانت ثالثة الاثافي . . .

وبعد ان مكث احد عشر شهرًا في مالطة طلب ان ينتقل الى الاستانة فأُذن له . فقدم العاصمة الكبرى وعاش فيها الى ان توفي في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٥٠ ودُفن في كنيسة الارمن الكاثوليك .

❁

ان الكثيرين قد استغربوا تردّد الامير الكبير في الدفاع عن كيان شعبه ، بعد إخلال ابراهيم باشا بعهوده ، وخصوصاً تردده في قبول الانضمام الى الحلفاء بعد ان وعدوه بالامارة الوراثية على لبنان مستقلّ .

والاستغراب في محله . لكن يجب ان لا ننسى ان الثورة اللبنانية وقعت في العام ١٨٤٠ ، اذ كان قد اصبح عمر الامير اثنتين وسبعين سنة ، وكان يحكم بلاده منذ اثنتين وخمسين سنة . فكان قد تعب ، لا سيما وفي ايام

---

١) الشدياق : ك . م . ص ٦١٠

حكمه كثرت المشاكل والهموم . بقي في البدء اكثر من خمسة عشر عاماً في حروب اهلية دائمة مع انسبائه مزاحميه على الامارة ، فيفرّ تارة من لبنان ، وطوراً يقع اسيراً في ايدي الجزار . فأصبح الحذر مبدأه ، وما سياسته في العهد المصري الّا سياسة حذر دائم ، وقد رأيناه في آخر دقيقة ، عندما اراد مغادرة بيت الدين ليسلّم نفسه في صيدا ، «يظهر لبحري بك انه متوجه الى الشوف لجمع الرجال»[1]. هي صفحة مؤسفة من تاريخ الامير الكبير .

ومن الحق ان نعترف لبشير بانه في السنين الاخيرة لم يعد المسؤول الوحيد عن حكمه . فقد كان ، كما قلنا ، تعب من الاشغال ، فسلّم الامر لابنه الامير امين[2]. وكان هذا الاخير تلميذاً للشاعر بطرس كرامه وصديقاً حميماً له . اما بطرس كرامه فكان غريباً عن لبنان ، ونسيباً لآل البحري معاوني ابراهيم باشا . وصادف تعيينه مديراً للامور (١٨٢٨) المدة التي كان الامير يمهّد فيها السبيل للفتح المصري ، فكان عيناً للحكومة المصرية على البلاط اللبناني . ومن يقلب صفحات المصادر التاريخية لذاك العهد يجد الامير امين المذكور ، متولي الامر من قبل ابيه ، وصديق بطرس كرامه ، اكثر الامراء تقرباً الى السلطات المصرية . فكثيراً ما نقرأ في « اخبار الاعيان » للشدياق ان ابراهيم باشا « كتب الى الامير ان يرسل له ولده الامير اميناً فأرسله » ، او « صار الامير امين . فاستقبله الوزير احسن استقبال »[3] فلا غرو اذا عرف الثوار بتأثير الشاعر بطرس كرامه على ولاة الامر الوطنيين تأثيراً مضراً بمصلحة البلاد فطالبوا بإبعاده عن بيت الدين . وكانت آخر نصائح المدبر الحصي اشارته على الامير بعدم التسليم للإنذار الانكليزي ، فضاعت فرصة ثمينة لجعل الحكم وراثياً في لبنان ، وبالتالي مستقلاً عن كل نفوذ خارجي .

---

١) الشدياق : ك . م . ص ٦١٠
٢) الشدياق : ك . م . ص ٥٦٣
٣) الشدياق : ك . م . ص ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٣

النتائج ان طول العهد الذي حكم فيه الامير بشير جعل منه سلطة ادبية لا تُنازَع . لنطالع كل ما قيل وكتب في اضطرابات لبنان على اثر احتلال المصريين لأراضيه ، فلا نعثر على جدال في حق الامير بالولاية . وقد رأينا الثوار يميزون بين الحكومة الاجنبية التي قاموا يحاربونها وحليفها الامير بشير فيكرمون هذا الاخير ويضعون شخصه خارج النزاع .

فلمّا انهارت هذه الشخصية سقط معها صرح الوحدة اللبنانية . وكانت الدعايات الاجنبية على اختلافها ، في السنين الاخيرة من ولاية بشير الكبير ، لم تغفل عن طريقة في هدم هذه الوحدة . وبينما كان اللبنانيون في حروبهم الاهلية الماضية ينقسمون الى حزبين ، جنبلاطي ويزبكي ، فيؤيد كل من الفريقين ترشيح امير شهابي لتسلّم الاحكام ، ولا يعرفون للطائفية معنى ، حتى ان امير لبنان كان يدعى في الفرمانات الرسمية « امير الدروز » ، وغالباً ما كان مسلماً سنياً او نصرانياً دون ان يهتم بالامر احد من رعاياه — بينما كان اللبنانيون في الماضي لا يثورون على الحاكم الا وقد رشحوا للجلوس مكانه اميراً شهابياً ثانياً ، اذا بهم بعد سقوط بشير الكبير ينقسمون طوائف ويجادلون في نظامهم التاريخي .

فيطلب النصارى ان يكون حاكم لبنان اميراً مسيحياً ، ويعلن الدروز انهم غير راضين عن تعيين الامير بشير الثالث حاكماً لأنه مسيحي[1] . فلم يطل اجل ولاية الامير بشير الثالث ، وكثرت المناوشات الدامية بين ابناء الوطن الواحد ، فأُعيد النظر في وحدة الاراضي اللبنانية ، تلك الوحدة التي ثابر امراؤنا على تأليفها والمحافظة عليها مدة قرون ، فقُسم لبنان الى قائمقاميتين ، درزية ونصرانية ، فعجّلت وقوعَ حوادث ١٨٦٠ .

وتداعى في الوقت نفسه نظام لبنان الاقطاعي ، وكان الامير بشير الكبير قد ضربه الضربة الاولى بإبعاده اكثر ابناء الاسر الاقطاعية عن حكم اراضيها . فلمّا ارتحل الامير عن البلاد ، ظنّ هؤلاء انهم يعودون الى سالف مجدهم ، ونسوا ان الشعب ، وقد شاهد سقوط اعظم سلطة عرفها منذ قرون ، لن يدعهم يحكمونه كما في السابق . فكانت حوادث سنة ١٨٥٨ .

١) المنازن : ك . م . ص ٥٠

وفي وسط تلك الانهيارات الهائلة التي شهدها هـذا الوطن الصغير على اثر نفي الامير ، بقيت سلطة واحدة لم يكن لها شأن سياسي يُذكر في عهد الامارة ، فكثر الدوران حولها في ايام الثورة على ابراهيم باشا ، وكان لها قسط في قلب النظام الاقطاعي ، حتى اذا خلت البلاد من سلطاتها التقليدية ، الامراء واصحاب الاقطاع ، برزت الى الوجود تعمل في سبيل لبنان وتحافظ على ما كان في الامكان المحافظة عليه ، هي البطريركية المارونية .

انطوى ، بنفي الامير ، فصل من تاريخنا بدأه فخر الدين في سبيل توحيد لبنان ، وواصل خلفاء فخر الدين عمله حتى كانت فرضى ١٨١٠ ، فظن الكثيرون انه قُضي على هـذا الوطن الصغير . ولكن العالم شهد بأنه لا بـد من الوحدة اللبنانية لتوطيد الامن واسباب المدنيـة في الشرق الادنى ، فتدخلت الدول العظمى ، في سنة ١٨٦١ ، لتضمن لنا الراحة والطمأنينـة ، ووضعت النظام الذي عاش حتى سنة ١٩١٥ . فقام ابناء لبنان ، في ظل ذلك النظام — وبالرغم من الهزات العنيفة الدامية التي مرت عليهم على اثر المغامرة المصرية وما وليها من بتر وطنهم — بمشاريع عمرانية واعمال ثقافية خلدت لهم ذكرًا في انبعاث الشرق .

ومن الحوادث التي رأيناها نحفظ امرين ، اولهما ان بشيرًا اوشك ان يضيع ببضع سنوات ما كان قد بناه هو وآباؤه مدة قرون ، لأن الجرأة نقصته في علاقاته بالحليف المصري ولأنه استسلم لآراء مدير غريب عن البلاد وشعورها .

اما الامر الثاني فهو ما جاء في كتاب رفعه ممثل روسيـة في بيروت الى حكومته في ١١ حزيران ١٨٤٠ : «وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا ، في سنة ١٨٣٢ ، قد جرّ معه خضوع كل سورية ، فلا يبعد ان ثورتهم اليوم ستؤول الى طرد المصريين نهائيًا من هذه البلاد .»[1] وتعاقبت الايام محققة ظن الكاتب في تأثير هذه الامة الصغيرة في احداث الشرق الادنى .

---

١) المحفوظ : ك . م . ص ٦